عن الغزو الثقافي والأمية

كتب الدكتور فهد الفانك في جريدة الرأي ليوم الجمعة ٢٥/١٠/١٩٩١ وفي زاوية رؤوس أقلام مقالا عن الغزو الثقافي والأمية. وبشكل مختصر يرى الدكتور الفانك أن (التحذير من استباحة حضارتنا عن طريق الثقافات الواردة) يعود إلى (افتقاد العالم الإسلامي للأمن الثقافي) وأن هٰذا بدوره ناتج عن (استفحال الأمية) ونقص التعليم في العالم الإسلامي. ويرى الدكتور الفانك أن (أوروبا المتخلفة) وقت أن (كانت الثقافة العربية الإسلامية هي الثقافة الأولى) (اختارت الانفتاح) ولم تقرر (حماية أمنها الثقافي بوضع الحواجز أمام الغزو الثقافي العربي الإسلامي) ولذلك نجحت ـ في ماذا؟

والدكتور الفانك يحبذ لنا بطبيعة الحال هٰذا الاختيار لأنه يرى أن (الغزو الثقافي اصطلاح رجعي يعتمد على فكرة الخوف من الآخر وعدم الثقة بالنفس) وأن (الفاقدين لشخصيتهم القومية والحضارية وحدهم هم المعرضون للاقتلاع إذا تعرضوا للغزو الثقافي).

وفي الواقع فإن (الغزو الثقافي لحضارتنا) حصل ويحصل بشكل مكثف ومنذ مدة طويلة وتكرس له أجهزة وإمكانات ضخمة ولا توجد أية بادرة تحمل على الظن بأن ذلك سيتوقف وطرح مجلة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي رد عليها الدكتور الفانك ورد الدكتور الفانك نفسه يأتيان فقط في إطار نظري بحت وحيث أن الدكتور الفانك يعلم ذلك تمام العلم فإن رده وبالأسلوب الساخر الذي جاء به لا يهدف إلا إلى إحباط أثر الصوت المخالف مهما كان ضعيفا وغير مؤثر في الأساس.

وللأسف فإن أول ما يصدم القارىء ـ في مقال الدكتور الفانك هو افتقاره للمنهجية ـ صفة العلم الأساسية. وخلطه للمفاهيم..

فأولا: ماذا تعني كلمة (رجعي). أين هو الإمام وأين هو الخلف بالنسبة للدكتور الفانك؟ لقد كان الماركسيون (التقدميون) يسمون دعاة الاقتصاد الحر (رجعيين) والآن وبعد البيريسترويكا ومحاولة الانقلاب الفاشلة على غورباتشيف أصبح (تقدميو) الأمس يعتبرون من (الرجعيين). . وهاك مثالا آخر أكثر وضوحا: لقد (رجعت) أوروبا في عصر التنوير إلى أصولها اليونانية واعتبر ذلك (تقدما) قامت عليه الحضارة الحديثة. فهل للدكتور الفانك أن يحدد لنا متى يكون الرجوع إلى الأمام ومتى يكون التقدم إلى الخلف؟ لا شك أن اصطلاح (رجعي) اصطلاح تحكمي غوغائي (ديماغوجي) عفا عليه (الزمن) ولا يليق استخدامه (بالدكتور) الفانك الذي لا شك يعلم أن تحديد معاني المصطلحات هو المدخل الذي لا بد منه لكل بحث منهجي.

وثانيا: نجد الدكتور الفانك يخلط بين مفهومي التعليم (بل ومحو الأمية) والثقافة فهو يقول: يجب أن نفتح الباب للثقافات الأجنبية لأن عندنا كثيرا من الأميين وغير المتعلمين وهٰذه مقولة عندما تفهم حق فهمها بعد تحديد معاني المصطلحات فإنها تشكل دعوة صريحة للفوضى الفكرية وللتخلي عن شخصيتناالقومية والحضارية التي يدعي الدكتور الفانك أنه يدافع عنها. وكان يجدر بالدكتور الفانك أن يلاحظ أن عنوان المجلة التي يهاجمها يفرق بوضوح بين هٰذه المفاهيم حيث هي مجلة التربية والعلوم والثقافة بواو العطف التي تفيد التغاير.

ولنبدأ بتحديد معاني المصطلحات فنقول أن الثقافة هي مجموعة المفاهيم التي ينطلق منها الفرد والمجتمع في حركتهما فهي التصور الكلي للوجود والإنسان ودور الإنسان في الوجود، والحضارة هي انعكاس هٰذا التصور على حركة الإنسان والمجتمع الخلقية والمادية، وعليه تتميز كل أمة بثقافتها وحضارتها ما تنتجه حال وجودها وما تخلفه بعد فنائها.

وتطول المقارنة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأوروبية الحاكمة اليوم في العالم والتي يدافع الدكتور الفانك عن انفتاحنا عليها وباختصار يمكن القول بأن

الثقافة الإسلامية تقوم على الإيمان بخالق للكون مدبر له قائم عليه بعث أنبياءه لهدايةالناس إلى ما يريده لهم من معاني الحق والخير والجمال وعلى احترام العقل والحواس كمصادر للمعرفة ولكن بوضعهما في مكانهما الصحيح كوسائل جزئية ناقصة تأتي في المقام الثاني بعد الوحي ـ ممثلا في القرآن والسنة ـ لفهم الكون والحياة والإنسان وفي مجال القيم يقوم الإسلام على إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده وبذلك وفي ظل الشريعة الربانية لا يتحكم إنسان ولا طبقة ولا جنس ولا عنصر في آخر وتتحقق كل المعاني الإنسانية العليا تحققا فعليا لا نظريا فقط. وقد قامت حضارة على هٰذه الثقافة وقدمت للإنسانية في حينها نماذج ضخمة من المنجزات المادية والإنسانية لا يمكن حصرها ولا يمكن في هٰذه العجالة حتى التمثيل لها وقد اعترف الدكتور الفانك بذلك قائلا أن الحضارة العربية الإسلامية كانت الأولى في العالم قبل ألف سنة ونحن نقول أن الثقافة الإسلامية كانت وستبقى الأولى في العالم لأنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبأن الحضارة الإسلامية تتقدم وتتراجع بقدر تقدم المسلمين وتراجعهم عن الثقافة الإسلامية.

في الجانب الآخر تقوم الثقافة الأوروبية المعاصرة على تاريخ من الصراع بين كل من الفكر الكنسي المتدين الذي كان ينظر بازدراء إلى العلوم المادية (العقلية والحسية)، والفكر اليوناني الوثني الذي كان يشارك في ازدراء التفكير في الجزئيات الواقعية متطلعا للتفكير في المثل الخيالية ويزدري كذلك البحث اليدوي (يقال الآن التجريبي) مكتفيا بالتأمل العقلي لأن اليونان كانوا يستخدمون قطعانا كاملة من العبيد لأداء أغراضهم اليدوية في ديمقراطيتهم المزعومة، وبين تأثير الفكر الإسلامي الموحد الذي دخل أوروبا عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية والذي كان ينظر باحترام إلى العقل والحس معاً بعد وضعهما في مكانهما. وقد حاولت الكنيسة في حينه أن تكون توليفة بين هٰذه العناصر جميعها بحيث تبقى تحت سيطرتها ولكن المد التحرري ـ وإن أزيل عنه عنوانه الإسلامي بسبب التعصب الأوروبي ـ كان من القوة بحيث اجتاح الكنيسة أخيرا وكان ذلك على حساب كثير من التضحيات ومحاكم

التفتيش. وكانت النتيجة النهائية أن الحضارة الأوروبية الحالية تقوم من حيث العقيدة على نفي فكرة الأله الفاعل المتصل بالبشر عن طريق الأنبياء سواء كان بإنكار الإله تماما أو إنكار دوره أو دور الدين في الحياة وبالنسبة لمصادر المعرفة لا تعترف الحضارة الحالية إلا بالحس والعقل الحسي ومن ناحية القيم لا تعترف إلا بالقيم العملية أي المصلحة وإن كانت ترفع ـ للدعاية والإعلان ـ إعلام قيم خلقية لا تطبقها كالمساواة ـ في جنوب إفريقيا ـ والحرية ـ كاستعمارها واستعبادها للعالم المستضعف طيلة قرون من الزمان ـ والعدالة ـ مثل محق الشعوب الأمريكية الأصيلة التي سموها الهنود الحمر ـ وطلعت علينا أخيرا بشعار الشرعية الدولية ـ أي الشرعية التي يمنحها الأوروبيون لمن يريدون ويمنعونها عمن يريدون ـ وقد رأينا من تطبيقاتها ما يعرفه الجميع.

هٰذا عن الثقافة. أما التعليم فيعني حرفيا تدريب الفرد أو الجماعة على أداء مهمة ما بكفاءة وأما التربية فهي عملية الإشراف والتنظيم للمساعدة على النمو الكامل لشخصية الفرد وقد عرفت التربية لأن كثيرين يستخدمون تعبير التعليم في العملية التي تجري في المدارس والتي هي في الواقع تربية وتعليم معا ففي إطار التعليم يدخل تدريب الفرد على القراءة والكتابة (محو الأمية وتعليمه اللغات والحقائق الصرفة عن هٰذا العالم) ولكن أسلوب عرض هٰذه الحقائق وتفسيرها وتوجيه الطالب إلى طريقة معينة في فهمها والتعامل معها هو من التربية وينشأ مباشرة من ثقافة المعلم أو كاتب كتاب المنهاج المقرر فالتعليم أقرب إلى المعرفة بينما التربية أقرب إلى الثقافة.

وهكذا نجد أن الإنسان الأمي أو غير المتعلم أو ناقص التعليم هو الإنسان ناقص الدربة على القراءة والكتابة أو استعمال اللغات أو ناقص المعلومات عن حقائق معينة أو على الأصح عن الحد المعين من الحقائق التي يراد له أن يعرفها عند انتهاء تكوينه المدرسي ويصاحب ذلك بالضرورة عدم تفاعل مع الحقائق التي لا يعرفها وهٰذا نقص تربوي أو ثقافي ولكن ذلك لا يعني بالضرورة عدم وجود تصور كلي للوجود ولدور الفرد فيه بل لا شك أن لكل إنسان تصورا ما عن الوجود ودوره فيه وهٰذه ضرورة إنسانية لا شك فيها بداهة وعنها تصدر تصرفات

الفرد وبها تفسر. فمن أين يتكون هٰذا التصور الكلي عند الإنسان غير المتعلم؟ إنـه يأتي من خبراته المختلفة وخاصة عن طريق الأسرة وهٰذا بدوره يأتي عن طريق التصور العام للأمة بمجموعها والذي تكونه خبراتها أي تراثها وحاضرها. وهكذا نجد الإنسان الأوروبي مثلا أو الإنسان المسلم مثلا يتصرف كل منهما تصرفا مميزا معينا في وضع معين مهما كانت درجة تعليمه وما ذلك إلا لأن كلا منهما يعكس ثقافة معينة مختلفة عن الآخر.

والآن وبعد تحديد المصطلحات نجد دعوة الدكتور الفانك تعني: حيث أن لدينا كثيرين من غير المدربين على القراءة والكتابة ومن ناقصي معرفة حقائق معينة في الوجود فيجب أن نفتح الباب ـ أو لا نوصده على الأصح ـ لمفاهيم الآخرين وطرق تصورهم للوجود. . أقل ما في هٰذه الجملة أنها متهالكة فما هي العلاقة المباشرة بين معرفة القراءة والكتابة وبين طريقة تصورنا للوجود ودورنا فيه؟ فإذا أضفنا أن عدم معرفة بعض الحقائق تجعل الفرد أكثر قابلية للانبهار بمن يعرفه بها وأكثر طواعية في تقبل طريقة فهم الآخر أي أكثر هشاشة وأكثر قابلية (للغزو الثقافي) الذي يهزأ منه الدكتور الفانك تصبح هٰذه الدعوة دعوة صريحة للانبطاح أمام التيارات المختلفة التي تريد تدمير مفاهيمنا للوجود ودورنا فيه.

كان الأجـدر بالدكتور الفانك أن يدعو إلى زيادة المدارس ومعاهد محو الأمية وتـطبيق قوانين التعليم الإلـزامي وزيادة نسبـة مخصصـات التعليم في ميزانيات دول العالم الإسلامي. . كل هٰذا كان يكون مفهوما ومشكورا ومتسقا مع المشكلة وهي نقص التعليم ولكن أن نقـول: حيث أن شعبنـا غير متعلم افتحوا الأبواب للمفاهيم الغربية لكي تنخر في عقله زيادة على ما هو حاصل فهذه دعوة أقل ما فيها أنها غير منطقية ولا يمكن أن تصدر عن تسلسل فكري سليم ضمن المعطيات التي صرح بها على الأقل.

ثالثا: انتقل الآن إلى الدعامة الثانية التي بنى عليها الدكتور الفانك **دعوته** لفتح الباب أمام ما رفض أن يسميه الغزو الثقافي فقد كانت دعامته الأولى ما

ذكرناه من انتشار الأمية في العالم الإسلامي. أما دعامته الثانية فكانت موقف أوروبا التي (اختارت الانفتاح ونجحت) أمام الحضارة الإسلامية. ولن نقف هنا لنتساءل في أي شيء نجحت وهل كانت الحضارة التي انتجتها حضارة إنسانية متوازنة أم حضارة تكنولوجية مادية فقط وهل استفادت البشرية كلها منها أم انتهت باستعباد غالبية الإنسانية المسحوقة العزلاء لصالح أقلية مسلحة شرهة لا تشبع من ابتزاز الشعوب الأخرى واستهلاك مواردها والعمل الدؤوب على تجهيلها وقمعها وطمس ثقافاتها.. بل وإن الغزو الثقافي المذكور لا يراد منه نقل هذه الشعوب المستعبدة إلى مستوى السادة وإنما طمس ثقافاتها الأصيلة التي يمكن أن تكون بؤرة تتمحور حولها آمالها وتطلعاتها وتدفعها إلى الأمام.. أما بالنسبة للأنتاج المادي والتصنيع التقني واللذين هما حقيقة ما نجحت فيه أوروبا فهما محرمان على العالم المستضعف وكل محاولة جادة لنقلهما تقابل بالقمع الشديد السياسي والاقتصادي من قبل السادة الأوروبيين.

لن نتساءل في أي شيء نجحت أوروبا ولكننا سنتساءل هل حقا وقفت أوروبا ذلك الموقف الانفتاحي الذي نقفه اليوم والذي يدافع عنه الدكتور الفانك ويسعى لإسكات من يعترض عليه مهما كان صوته ضعيفا.. ولا يمكن هنا استقصاء وتحليل مواقف الفئات المختلفة التي كانت تشكل المجتمع الأوروبي في فترة اتصاله بالمسلمين عندما كانوا يتصدرون الحضارة العالمية ولكن ما يمكن قوله أن أوروبا وقفت كل موقف ممكن إلا موقف الانفتاح الكامل على الحضارة الإسلامية. لقد قامت شرائحها المختلفة بعملية فرز دقيقة جدا وانتقت بشكل اختياري كامل ما تريد أخذه وما لا تريد وحتى ما أخذته فإنها منعت ـ وما تزال ـ بكل الوسائل أن يحمل الخلفية الثقافية الإسلامية بل وحتى العنوان الإسلامي وإنني أحيل القارىء هنا لمراجعة كل من المستشرقة النصرانية الألمانية «زيجريد هونكه» في كتابيها: (شمس العرب تسطع على الغرب) و(العقيدة والمعرفة) والمستشرق اليهودي النمساوي «ليوبولد فايس» الذي اهتدى وأسلم وتسمى محمد أسد وكتب كتابه الشهير (الإسلام على مفترق الطرق) ففيهما تفصيل دقيق لموقف أوروبا من العلوم الإسلامية والثقافة الإسلامية.

وسأستعرض هنا مثالا نموذجيا لموقف أوروبا من المؤثرات الفكرية الإسلامية وهو ما سمي في تاريخ الفكر الأوروبي بالرشدية اللاتينية التي أقضت مضجع جامعة باريس ربع قرن بالتمام كما يقوم يوسف كرم في كتابه (تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى):

كان الحفيد ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) فيلسوفا أندلسيا مسلما اطلع على فلسفة «أرسطو» وأعجب بها غاية الأعجاب وقضى حياته في شرحها حتى سمي بالشارح وعكف على محاولة التوفيق بين (الحكمة) اليونانية وبين الشريعة ومع أن فكره لم يكن يتسق تماما دائما مع النظرة الإسلامية لأنه اعتبر العقل الأرسطي كند بل وكحكم أمام العقيدة الدينية مما لم يجعل له أثرا كبيرا على مسيرة الفكر الإسلامي إلا أنه ترك أثراً كبيراً جدا في الفكر الغربي فقد انتشرت ترجماته لأرسطو وشروحه عليها وقد بهر الغرب الذي لم يكن قد اطلع إلى ذلك الحين إلا على الفكر الأفلاطوني الحديث الذي كان «أوغسطين» قد صهر فيه الفكر الكنسي. بهر الغرب بالفكر الأرسطي وعكف المتدينون منه على محاولة التوفيق بين الكثلكة والفكر الفلسفي وكان على رأسهم «توماس الأكويني» (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م) الذي رسم قديسا فيما بعد لأنه بقي ضمن المعطيات العامة للفكر الكنسي. ولكن هناك فئة يبدو أنها لم تستطع أن تهضم الألغاز والأسرار الكنسية فأعلنت معارضتها للتوفيق بين الدين والفلسفة ولكنها ـ كيلا تتهم بالهرطقة التي كان عقابها صارما جدا وهو الحرق حيا ـ خرجت بنظرية الحقيقتين وهي أن كلا من العقل والدين يعطي تصورا للوجود مخالفا لتصور الآخر وكلاهما حقيقي وصحيح رغم اختلافهما وهكذا وصلنا إلى يقين (مصدره العقل) دون اعتقاد واعتقاد (مصدره الدين) دون يقين حسب تعبير يوسف كرم وقد سمي أصحاب هٰذه النظرية بالرشديين اللاتين نسبة لابن رشد ـ وإن لم تكن هٰذه مقولته تماما ـ ونسبة إلى أنهم كانوا يدرسون باللاتينية لغة الفلسفة والعلم في ذلك الحين. وكان على رأس هؤلاء الرشديين اللاتين «سيجر دي برابان» (١٢٣٥ ـ ١٢٨٠ م).

كان «سيجر» لاهوتيا وفيلسوفا من منطقة «برابان» (مقسمة اليوم بين هولندا

وبلجيكا). تخرج وعلم في كلية الفنون في باريس منذ سنة ١٢٦٥ وبرز كزعيم للرشدية اللاتينية التي حظرها أسقف باريس سنة ١٢٧٧ وطلب إليه المثول أمام محكمة التفتيش الباريسية ولكنه هرب واحتكم إلى البابا حيث لم يستطع هٰذا الأخير إدانته بالهرقطة ولكنه وضع في الإقامة الجبرية في مدينة أورفيتو الإيطالية حيث اغتاله كاتبه الذي قيل بأنه جن ـ كالعادة في مثل هٰذه الأحوال ـ.

وقد طمست كتبه ستة قرون وكان «إرنست رينان» (١٨٢٢ ـ ١٨٩٢) أول من أعلن عن وجود الحركة الرشدية اللاتينية في القرن الثالث عشر. و«إرنست رينان» كاتب فرنسي خرج عن الكنيسة وتخلى عن الكهنوت بعد تأهيله لذلك ومباشرة قبل ترسيمه كاهنا.

وهكذا نرى أن مجرد انتساب حركة فكرية أوروبية إلى مفكر مسلم جعلها تحظر ويغتال زعيمها وتمحى من ذاكرة الوجود تماما لولا أن اطلع عليها مطلع (من داخل البيت كما يقولون) فأخرج ذكرها للعموم بعد ستة قرون تماما.

تتمة للفائدة نقول أن «توماس الأكويني» كان قد استخدم الفكر الأرسطي في كتابة كتابين أحدهما الخلاصة اللاهوتية ـ في عرض الفكرة الكاثوليكية ـ والثاني الخلاصة ضد الأمم والمقصود اليهود والمسلمون وكان «لتوماس» أثر كبير جدا في الفكر الكنسي. ولكن «توماس» التقى مع «سيجر دي برابان» الذي طرح عليه نظرية الحقيقتين مما جعل «توماس» يرى «الفشل النهائي لمحاولة حياته في التوفيق بين «أرسطو» والمسيح ومات «توماس» بعد ذلك بفترة وجيزة محبطا قائلا لزميله «ريجنالد» بأنه رأى أشياء لم تكن كتاباته حيالها إلا فتات من القش» كما يقول الدكتور «برسيفال بيلي» في كتابه «سيجموند القلق». ويقول «جون جوهين» في موسوعة كوليار الأمريكية أن الفكر الرشدي استمر في التأثير التحتي ـ رغم الحظر ـ في أوروبا وكانت نظرية الحقيقتين أساسا لفصل الكنيسة عن الدولة فيما بعد وكان الرشديون هم الذي خلصوا أوروبا من ربقة الحكم الكنسي.

وهكذا فلم يكن موقف أوروبا من الحضارة الإسلامية موقف الانفتاح الذي

يحلو للبعض أن ينادي به، على أننا في النهاية لسنا ضد التفاعل الحضاري والثقافي ولكن ـ ومن منطلق نظري بحت كما بينا في بداية الحديث ـ يجب الإعداد لهذا التفاعل بتوفير قاعدة ثقافية واسعة وعميقة عن طريق التعليم للناشئة والإعلام لمن تجاوزا طور التعليم وبعد ذلك فقط فليفتح الباب أمام كل التحديات الفكرية والثقافية وسنجد من يميز الخبيث من الطيب فيقتني الطيب ويرد الخبيث من حيث جاء.

﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [الرعد: ١٧]. صدق الله العظيم.

نشرت في جريدة الرأي ٢٢/١١/١٩٩١

obeikandl.com